قسم اللغة العربية وآدابها :

الفرقة الثانية :

محاضرة النقد في القرن الرابع الهجري:

د/ إيمان عبد السميع

حُجَّة الإصابة في الوصف :

يُمَثِّلُ هذا العنصر مُقَوِّمًا أساسيًّا من مُقَوِّمَات شرف المعنى وصحته ، إلاّ أنه خُصَّ بباب مستقل في عمود الشعر لأهميته .

والإصابة في الوصف في عمود الشعر لا تتوقف عند غرض الوصف المعروف ، بل تشمل فنون الشعر المختلفة من مديح ، وهجاء ، ورثاء ، ونسيب ، ووصف ، ويُرَادُ بها إجادة الشاعر وقدرته على تصوير الموصوف تصويرًا مُطَابِقًا لما هو عليه ، وإلمامه بكل جوانبه إلمامًا تامًّا ، وجعله قريبًا من تمثُّل القارئ له.

وقد تحدَّثَ النقاد عن الإصابة في الوصف ، وعن الشاعر الأَرْمَى للغرض من سواه[١]، فقد ذكر الآمدي أن أجود الشعر أبلغه « والبلاغة إنما هي إصابة المعنى ، وإدراك الغرض بألفاظ سهلة»[٢] ، كما اتفق النقاد على أن أجود الوصف هو الذي يحكي الموصوف حتى يُمَثِّلَهُ عيانًا للسامع « فأحسن الوصف ما نُعِتَ به الشيء حتى يكاد يمثله عيانًا للسامع»[٣]، فأبلغ الوصف « ما قلب السمع بصرًا»[٤].

وأول ما يحتاج إليه الشاعر معرفة مقاصد الكلام ، ومطابقته لمقتضى الحال[٥]، فإذا قام الوصف بنفسه ، ومَثَّلَ الموصوف في قلب السامع ، وأظهر المعنى ، كان الشعر حسنًا ؛ « فخير الكلام الحقائق ، فإن لم يكن فما قاربها وناسبها»[٦].

وكان العرب يمدحون «الحِذقَ والرِّفق ، والتخلُّصَ إلى حَبَّاتِ القلوب ، وإلى إصابة عيون المعاني ، ويقولون أصاب الهدف إذا أصاب الحقّ في الجملة»[٧].

ويُعَرِّفه قدامة بأنه : « ذِكْر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات ، ولَمَّا كان أكثر

---

(١) الأصفهاني : الأغاني ، ج٨ ، ص٧٣ : "سُئِلَ جرير: أي الثلاثة أشعر ؟ فقال : أما الفرزدق فيتكلف مني ما لا يطيقه ، وأما الأخطل فأشدّنا اجتراءً وأرمانًا للغرض ، وأما أنا فمدينة الشعر".

(٢) الآمدي : الموازنة ، ج١، ص٤٢٤.

(٣) ابن رشيق القيرواني : العمدة ؛ في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج٢، ص٢٩٤.

(٤) المصدر السابق ، الجزء نفسه ، ص٢٩٥.

(٥) المصدر السابق ، ج١، ص١٩٩.

(٦) المصدر السابق ، ج٢، ص٦٠.

(٧) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج١، ص١٤٧.

وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المُرَكَّبة من ضروب المعاني ، كان أحسنهم من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مُرَكَّب منها ، ثم بأظهرها فيه ، وأولاها به ؛ حتى يحكيه بشعره ويُمَثِّله لِلحُسْن بِنَعْتِه»[٨].

فالإصابة في الوصف تَعْنِي : « ذِكْر المعاني التي هي ألصق بمثال الموصوف»[٩] ، بمعنى أن يُحْسِنَ الشاعر الإصابة في التعبير عن الغرض الذي يتناوله سواء أكان مدحًا أم هجاءً أم غزلاً ، كما أحسن زُهَير بن أبي سُلْمَى مدح هَرَم بن سنان ؛ لا لأنه مدحه بصفاته الخاصة ؛ بل لأنه مدحه بالصفات العامة للرجل الكريم من حيث هو أنموذج ينبغي أن يُحْتَذَى ؛ ولذا يروون عن عمر – ﷺ – أنه قال عنه : «كان لا يمدح الرجل إلا بما في الرجال»[١٠].

وقد جعل الآمدي إصابة الغرض المقصود لازمة لإجادة صناعة الشعر وإحكامها ؛ إذ يقول : « زعموا أن صناعة الشعر وغيرها من سائر الصناعات لا تجود وتستحكم إلا بأربعة أشياء وهي : جودة الآلة ، وإصابة الغرض المقصود ، وصحة التأليف ، والانتهاء إلى تمام الصنعة من غير نقص فيها ولا زيادة عليها »[١١].

ومما أُخِذَ على أبي تمام في هذا الجانب قوله :

لَو يَعْلَمِ العافُونَ كَمْ لَكَ فِي النَّدَى مِنْ لَذَّةٍ وَقَرِيحَةٍ لَمْ تُحْمَدِ[١٢]

إذ يرى الآمدي أن قوله : « "من لَذَّةٍ وقريحة" غلط ؛ لأن الوصف الذي وصفه به داعية إلى أن يتناهى الحامد له في الحمد ، ويجتهد في الثناء ، لا أن يدع حمده »[١٣].

---

(٨) قدامة بن جعفر : نقد الشعر، ص١٣٠.
(٩) محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، ص١٦٥.
(١٠) الآمدي : الموازنة ، ج١، ص٢٩٣.
(١١) الآمدي : الموازنة ، ج١، ص٤٢٦.
(١٢) أبو تمام : الديوان ، ج٢، ص٥٢ ، والبيت من الكامل .
(١٣) الآمدي : الموازنة ، ج١، ص٢٤١.

وتتحقق الإصابة في الوصف عندما يُصَوِّرُ الشاعر ما يريده تصويرًا مطابقًا لما هو عليه ، ويَلُمُّ بكل جوانبه إلمامًا تامًا ، كما تتحقق بالاستخدام السليم للغة ، واستخدام الألفاظ الدالة على المعنى المطلوب ، شأنها في ذلك شأن صحة المعنى.

وقد أشار الجرجاني إلى نُدْرة الشعراء الذين هم « أشمل للإحسان ، والإصابة والتنقيح والإجادة »[١٤]، ومن منطلق الإصابة في الوصف نراه يُعْجَب بأبيات للبحتري قالها في وصف أسد قتله الفتح بن خاقان منها :

غَدَاةَ لَقِيتَ اللَّيْثَ واللَّيثُ مُخْدِرٌ يُحدِّدُ نَابًا لِلِّقَاءِ ومِخْلَبَا[١٥]

ويقول إن البحتري « استوفى المعنى ، وأجاد في الصفة ، ووَصَلَ إلى المراد»[١٦].

ونراه في المقابل يأخذ على المتنبي تقصيره في وصف السهاد في قوله :

يَرَى فِي النومِ رُمْحَكَ فِي كُلاَهُ ويخْشَى أَنْ يَرَاهُ فِي السُّهَادِ[١٧]

« لأنه أراد أن يقابل بها النوم ، وبذلك يُتِمُّ المعنى ، وليس كل يقظة سُهَادًا ؛ إنما السُّهاد امتناع الكرى في الليل ، ولا يُسَمَّى المُتَصَرِّف في حاجاته بالنهار ساهدًا ، وإن كان مستيقظًا»[١٨].

كما يراه مصيبًا في وصف الدنيا في قوله :

أبَدًا تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُ الدُّنْـ ـيا، فَيَا لَيتَ جُودَهَا كَانَ بُخْلا ! [١٩]

---

(١٤) القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص٤١٥.
(١٥) البحتري : ديوان البحتري ، مج١، ص١٩٩، والبيت من الطويل ، ومُخْدِرٌ : مستتر في عرينه.
(١٦) القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص١٣٢.
(١٧) المتنبي : ديوان المتنبي ، ج١ ، ص١٤٢، والبيت من الوافر.
(١٨) القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص٢٥٣.
(١٩) المتنبي : ديوان المتنبي ، ج٢ ، ص٥٨١ ، والبيت من الخفيف .

ويرى أن بيته مستوفٍ للمعنى زائد[٢٠].

كما أُعْجِبَ بوصف دعبل للفلاة ودليلها في قوله :

إِذَا أُقْـحِـمَ الـرُّكْـبَـانُ فِـيهَا تَبَتَّلُوا فَمُسْتَغْـفِـرٌ مِـنْ ذَنْـبِهِ وَمُسَبِّحُ [٢١]

وقول أبي الطيب في وصف دليلها :

يَتَلَوَّنُ الخِرِّيتُ مِنْ خَوْفِ التَّوَى فِـأيهَـا كَـمَـا تَـتَـلَوَّنُ الحِـرْبَاءُ[٢٢]

كمـا يُعْجَـبُ بأبيـات للمتنبـي فـي وصـف الحُمَّـى ، ويَرَاهـا مـن أفـراد أبياتـه ، ومنها :

وَزَائِرَتـــي كَـــأَنَّ بِهَـــا حَيَـــاءً فَلَـــيسَ تَـــزُورُ إلاَّ فِـــي الظَّـــلامِ

بَذَلْـتُ لَهـا المَطَـارِفَ وَالحَشَايَـا فَـعَافَتْـهَا وَبَـاتَـتْ فِـي عِـظَـامِـي[٢٣]

ويراه « قد اخترع أكثر معانيها ، وسَهَّلَ في ألفاظها ؛ فجاءت مطبوعة مصنوعة ، وهذا القسم من الشعر هو المُطْمِع المُؤْيِسُ»[٢٤].

---

(٢٠) القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص٢٦٨.

(٢١) دعبل بـن علـي الخُزاعـيّ : شـعر دعبـل بـن علـي الخُزاعـي ، صـنعة : عبـد الكـريم الأشـتر ، مطبوعات

مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ط٢ ،١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م ، ص١٠٩ ، والبيت من الطويل .

(٢٢) المتنبـي : ديـوان المتنبـي ، ج١، ص١٩٥، والبيـت مـن الكامـل ، والخريـت : الـدليل ، والتـوى : الهلاك

،والحرباء : دابة تدور مع الشمس كيفما دارت.

(٢٣) المتنبي : ديوان المتنبي ، ج٢ ، ص٦٧٨ ، والبيت من الوافر.

(٢٤) القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص١٢١.